

أثر الفن الاسلامي

في فنون الغرب

للدكتور زكي محمد حسن

الأمين العلمي لدار الآثار العربية



ورث الاسلام
فنون رومة
وبزنطة وإيران
وكلدنيا وأشور،
وتأثر المسلمون
بالأساليب الفنية
في البلاد التي
خضعت لهم
وانتشر فيها
دينهم، فظهر في
عالم الوجود فن

بل فنون إسلامية أثرت بدورها في فنون الغرب، وتركت فيها
ذكريات قل أن تخفى على من لهم دراية بتاريخ الفنون في العالم
والواقع أن العالم للتمدين في القرون الأولى بعد الميلاد كان قد
سُم الفن اليوناني القديم، وتاق إلى نوع من التجديد ينقذه من
منتجات هذا الفن التي أعوزها التنوع والابتكار، فتطلع إلى
تقاليد فنية أعظم أبهة وأكثر حمية في الزخارف والموضوعات
لا يبدل ما فيها من خيال ساحر وجاذبية ومفاجأة عظيمتين إلا
ماتتاز به من أسرار في مزج الألوان تملأ البصر وتبهج الخاطر. تلك
الأساليب الفنية للنشوة وجدها العالم للتمدين عند الساسانيين
أولاً، ثم في الفنون الإسلامية بعد أن امتدت الأمبراطورية العربية
واتسعت أرجاؤها. أما حلقتا الاتصال بين الشرق والغرب،
والمبران اللذان اتخذتهما الأساليب الإسلامية للوصول إلى أوروبا،
فهما الأندلس، والحروب الصليبية
في الأندلس أينعت المدينة الإسلامية، وأدخل العرب صناعة

الورق، وأصبحت قرطبة في القرن العاشر أكثر المدن في أوروبا
ازدهاراً وأعظمها مدنية؛ وكان عصر ملوك الطوائف باعثاً على تمدد
مراكز العلم والأدب والفن في شبه الجزيرة، وجاء ملوك المرابطين
والموحدين فكان اضطهادهم للمستعربين من بني الأندلس سبباً في
هجرتهم إلى الشمال، فزاد بذلك عيظ المدينة الإسلامية اتساعاً،
ونقل هؤلاء المستعربون إلى مهجرهم الجديد كثيراً من عادات
المسلمين وأزيائهم وصناعاتهم، وما لبث نجم المسلمين في الأندلس
أن أذن بالأفول، فتقدمت فتوحات المسيحيين، وأخذ نفوذ العرب
في التقلص، ودخل كثير منهم تحت السلطان المسيحي، فصاروا
يعملون للملوك والأمراء الأسبان، وتعلم منهم غيرهم، فانتشرت
أساليبهم الفنية؛ وكان سقوط طليطلة سنة ١٠٨٥، وقرطبة
سنة ١٢٣٦، وأشبيلية سنة ١٢٤٨، أكبر عامل على امتزاج الصناعات
العرب أو المستعربين بغيرهم. ثم كان سقوط غرناطة سنة ١٤٩٢
خاتمة هذا الطور الذي تعلم فيه صناعات الغرب عن المسلمين كثيراً
من أسرار صناعاتهم في المارة والفنون الفرعية؛ ولعل أهم مظاهر
لهذا الطور الطرز الأسباني الذي ينسب إلى المدجنين (style mudéjar)
أو المسلمين الذين دخلوا خدمة المسيحيين بعد زوال دولة العرب؛
وقد نشأ هذا الطرز في طليطلة واشتغل الصنائع «المدجنين»
بزخرفة الكنائس ودور الخاصة في أنحاء إسبانيا، ونبغوا في الفنون
الفرعية كصناعة الخزف والنسوجات والنقش على الأخشاب،
وكانت لهم في ميدان المارة آثار تذكر، وأهمها قصر أشبيلية
L'Alcazar الذي بنوه للملك بدر سنة ١٣٦٠ والذي ظل مقراً
للأسرة الملكية حتى إعلان الجمهورية منذ سنوات فأصبح متحفاً
يمجّب الزائرون بممارته العربية وبما جمعه فيه ملوك إسبانيا من
تحف إسلامية نادرة

أما الحروب الصليبية فلا بعيننا من نتائجها إلا أنها كانت
كالأندلس وجزيرة صقلية وسيلة إلى نزاع دائم تبغعه علاقات
متواصلة بين المسيحية والإسلام، وأوجدت هذه الحروب منفذاً
لتجارة الجمهوريات الإيطالية الناشئة كجنوا والبندقية وبيزا، وكان
من النتائج العملية لتأسيس المملكة اللاتينية في بيت المقدس نمو
تجارة هذه الجمهوريات وإنشاء معاقل لها في الشرق الأدنى

وإن صح القول بأن الأندلس وجزيرة صقلية لعبتا الدور
الأكبر في نشر الثقافة الإسلامية في المغرب، وإن فضل الحروب

على مصنوعاتهم ، ومن أمثلة ذلك صليب إيرلندي من البرونز المذهب يرجع عهده الى القرن التاسع ، وهو محفوظ الآن بالمتحف البريطاني وعليه بالخط الكوفي «بسم الله» ، وفي المتحف البريطاني أيضاً عملة ذهبية ضربها الملك أوفّا Oifa الذي حكم مرسية من سنة ٧٥٧ إلى ٧٩٦ ، وهذه العملة نقلها الملك المذكور عن دينار عربي ضرب سنة ٧٧٤ فنقل فيما قلده التاريخ الهجري والمباراة العربية المكتوبة عليه ، ولا نشك أنه في الحالتين لم يفقه العمال الثرييون معنى الكتابة العربية ، فنقلوها كزخارف فحسب ، وقدم في ذلك كثيرون من بعدهم

وقد كان للخزف الاسلامي أثر كبير في تطور صناعة الخزف في أوربا ، وقد كان الثرييون ينسبون اللونين الأزرق والأبيض الصيني في هذه الصناعة إلى بلاد الشرق الأقصى ، ولكن الحقيقة أن الصينيين كانوا يسمون هذا اللون الأزرق بالأزرق الاسلامي ، لأنهم أخذوه عن إيران الاسلامية في القرن الخامس عشر

ومن المعروف أن صناعة الخزف ذى البريق الذهبي lustre قد ارتقت في اسبانيا رقياً عظيماً ، فكانت مصانعها تشغل لحساب كثير من البابوات والكرادلة والأمراء النبيلة في اسبانيا والبرتغال وإيطاليا وفرنسا ، وبروون أن الكردينال اكسيمينز قال عن هؤلاء الصناع «الكفرة» : « ينقصهم إيماننا وتنقصنا صناعاتهم »

وقد ظلت صناعة الخزف الاسباني العربي hispano-mauresque في الأندلس حتى القرن السادس عشر ، وتعلمها الايطاليون في القرن الخامس عشر ، فتأثروا في الصناعة والخزاف والأشكال بما كانوا يستوردونه من اسبانيا ، وأصبح أنموذجاً للصناع في Faenza و Deruta و Urcino ، وأطلق على هذه المصنوعات اسم مايولكا majolique نسبة الى جزيرة مايوركا من جزائر البليار الاسبانية

هذا وقد وصل الى الفنون الغربية من إيران وتركيا رسوم بعض الزهور التي لم تكن معروفة فيها حينئذ إلا بفضل رسوماتها على الخزف الاسلامي الوارد من الشرق الأدنى منذ القرن الرابع عشر ولم يكن أثر صناعة المعادن الاسلامية في أوروبا بأقل من أثر صناعة الخزف ؛ ولئن استغرب ذلك من يعرف ما وصلت اليه هذه الصناعة من التقدم في عصر الفاطميين والماليك ومن قرأ

الصليبية في هذا الميدان لم يكن كبيراً نظراً لأنه لم يكن في الشام في عصر الحروب الصليبية مدنية تعادل مدينة الأندلس أو صقلية فضلاً عن أن هذه الحروب لم تكن مرتعاً خصيباً للدرس والتحصيل وتبادل الثقافة ، نقول إن صح ذلك في ميدان العلوم والآداب فانا نعتقد أن الدور الذي لعبته الحروب الصليبية في نقل الصناعات والفنون الاسلامية إلى أوروبا خطير لا يستهان به . ولعل استعمال الرنوك عند أمراء المسلمين في الحروب الصليبية كان أكبر عامل في تطور علم الرنوك والأشجرة عند الغربيين فأصبحت له اصطلاحاته الدقيقة وقواعده الثابتة ؛ وكانت الحروب الصليبية أيضاً وما تبعها من انتشار التجارة الغربية السبب فيما فصله البنادقة من سك نقود ذهبية للتعامل مع المسلمين وعليها كتابات عربية وآيات قرآنية فضلاً عن التاريخ الهجري ، وظل هذا حتى احتج البابا أنسونت الرابع سنة ١٢٤٩

وليس بغيراً أن العارة كانت أجل الفنون عند العرب فبلغوا فيها شأواً بعيداً ، وأخذوا من الأمم التي اختلطوا بها ما أخذوا ، وابتدعوا أساليب جديدة غالبة في الجودة والابداع ، ثم أخذت عنهم أوروبا كثيراً من هذه الأساليب . ولكن العلماء ليسوا على اتفاق في هذا الرأي ، فبعضهم يرى أن العرب لم تكن لهم عمارة خاصة ، وإن صح أن هناك أوجه شبه بين طرزهم المعمارية وبين الطرز الأوربية فانما ذلك لأن مصدر هذه الطرز كلها واحد . ومهما يكن من شيء فاننا نفضل ألا نعرض للعارة في هذا المقال مكتفين بالتحدث عن الفنون الفرعية les arts mineurs أو المنقولة كما اصطلح بعضهم على تسميتها

ولسنا نذهب إلى أن المسلمين وصلوا في هذه الفنون الفرعية إلى ما وصل اليه الثرييون . ولكننا لا نشك في أنهم تفوقوا في بعضها تفوقاً خاصاً وبلغوا في صناعة الخزاف مبلغاً يشهد بعبقريّة نادرة وخيال واسع

ولما كان تصوير المخلوقات الحية مكروهاً في الاسلام ، فقد أصبح عماد الخزاف الاسلامية الأشكال الهندسية والرسوم النباتية مضافاً إليها عامل جديد هو حروف الكتابة بالخط الكوفي أو بالخط النسخي أو بغيره من الخطوط ، ونحن نعلم كيف اهتم المسلمون وخاصة الفرس بتحسين الخطوط وزخرفتها ؛ وقد فطن الى ذلك صنّاع الفرس ، فأخذوا أحياناً يقلدون الكتابة العربية

وقد صنع المسلمون الثريات والأواني والصدائيق والكرامى والتنانير والمباخر من النحاس المكفّت بالفضة والذهب ، وكثر الاقبال على هذه التحف في أوروبا ، وبخاصة بعد أن عظمت تجارة الجمهوريات الإيطالية في الشرق منذ الحروب الصليبية ، وبلغت أوج عزها في القرن الخامس عشر

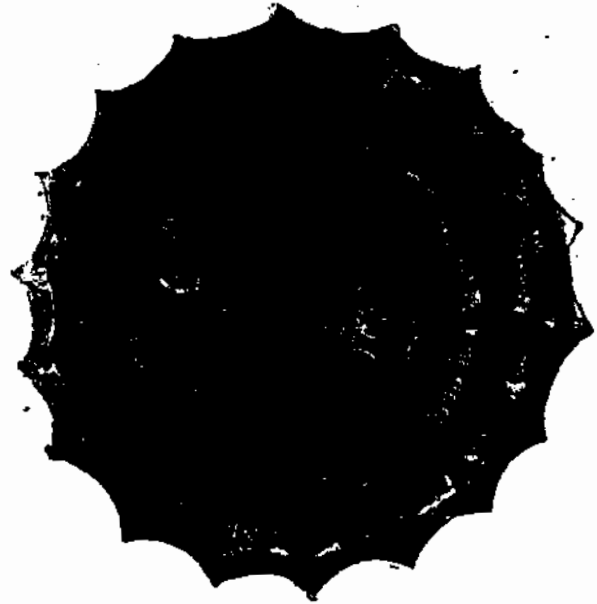
والواقع أن اضمحلال هذه الصناعة بدأ في الشرق منذ القرن الخامس عشر بعد ظهور المغول وغارة تيمورلنك على دمشق سنة ١٤٠١ ، ولكن المدن الإيطالية وخاصة البندقية ورثتها عن الشرق ؛ وظهرت في المدينة الأخيرة مدرسة من رجال الفن عملت على التوفيق بين ذوق الغربيين في عصر النهضة ، وبين الصناعة والزخارف الإسلامية . ومن المعروف أن صنّاعاً من الشرق اشتغلوا بصناعات أجدادهم في البندقية وجنوة وبيزا وفلورنسا . وفي المتاحف والمجموعات الأثرية أمثلة كثيرة من التحف الفنية النفيسة المصنوعة في إيطاليا في القرنين الخامس عشر والسادس عشر ، والتي تشهد بحسن الذوق وجمال الزخرف ودقة الصناعة . هذا ولا يفوتنا الإشارة الى ما في اللغة الإيطالية وغيرها من اللغات الأوربية من الألفاظ الاصطلاحية المنسوبة الى المدن الإسلامية في صناعة المعادن كدمشق وبلاد المصم . وكان لصناعة الزجاج الموهو بالينا شأن كبير عند المسلمين كما يتجلى من مجموعة المشكاوات النفيسة المحفوظة بدار الآثار العربية بالقاهرة ، والتي يرجع عهدها الى القرنين الرابع عشر والخامس عشر

وقد تقدمت صناعة الزجاج في البندقية منذ القرن الثالث عشر تقدماً كبيراً ، وبدأ البنادقة منذ القرن الخامس عشر يقلدون صناعة الزجاج عند المسلمين ، فالبثوا أن برعوا مثلهم في تمويه الزجاج بالينا ، وانتشرت هذه الصناعة من البندقية الى غيرها من المدن الأوربية ، وظهرت زخارف وطرز جديدة دون أن تزول القرابة بينها وبين النماذج الإسلامية الأولى

أما أساليب المسلمين في نقش الخشب وزخرفته وتطعيمه ، فقد ظهر تأثيرها في فنون البلاد الأوربية التي كان لها بالمغرب اتصال مباشر كالأندلس وجنوب فرنسا وصقلية ، ولكن هذا التأثير لم يكن كبيراً ، لأن هذه البلاد لم تكن أحوالها الجوية تستدعى ما اضطر اليه المسلمون من استعمال طريقة المربعات بده

ما دونه المغربي عن كنوز المستنصر بالله وما أخذه الأوربيون عن الشرق الإسلامي الاسطراب ، وهو آلة فلكية لقياس بُعد الكواكب . اخترعها الأغريق وحسنها بطليموس الجغرافي ثم علماء الفلك من المسلمين ، حتى أخذها عنهم علماء الغرب في القرن العاشر . وفي المتحف البريطاني أقدم اسطراب عليه تاريخ صنعه أحمد ومحمود ابنا إبراهيم الاسطرابي الاصفهاني سنة ٩٨٤ ، وفي المتحف نفسه اسطراب انجليزي تاريخه سنة ١٢٦٠ - وقد ظل البحارة يستخدمون الاسطراب في مراقبة الجو وشؤون الملاحة ، حتى خلفته اختراعات أخرى في القرن السابع عشر

وقد كان للأوربيين في القرون الوسطى نوع من أواني المياه كانوا يستعملونه في غسل أيديهم قبل الأكل وبعبء ، وأطلقوا عليه اسم aquamaniles ولا ريب أن صناعته متأثرة بما كان عند المسلمين من أوانٍ مماثلة على شكل طيور أو حيوانات من البرونز والنحاس ، ولعل أحسن مثل مكبر لتلك الأواني - وإن كان عظم حجمه يفرقه عنها - هو ذلك العقاب النحاسي الكبير المحفوظ الآن بالكاميو سانتو بمدينة بيزا في إيطاليا ، والذي يظن أنه من عصر الفاطميين بدليل ما عليه من نقوش كوفية وزخارف هندسية ، وصور حيوانات وطيور ، وليس معروفاً من الذي نقله الى إيطاليا ، ولا في أي المناسبات كان ذلك



ملست من البرونز من صناعة البندقية في القرن الخامس عشر وهو محفوظ الآن بدار الآثار العربية بالقاهرة

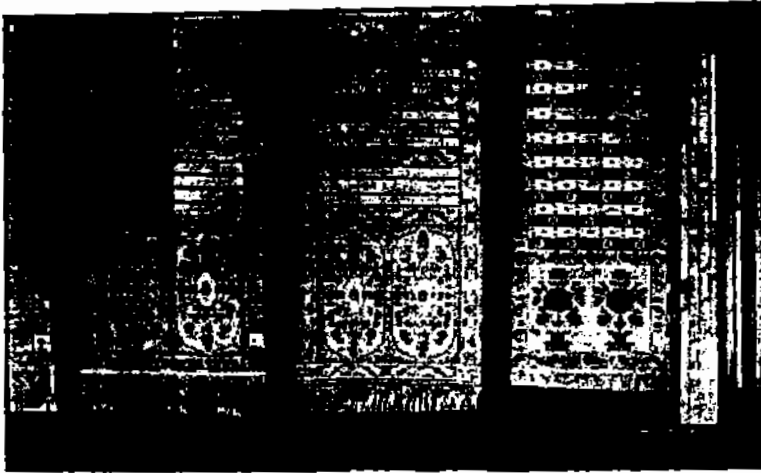
ان رسم الخطوط والزخارف الهندسية لم يكن ليألب فيها الدور الكبير الذى لعبه فى بلاد الاسلام



معلقة من الزجاج الموه بلينا من صناعة البندقية وعليها كتابات باسم السلطان قايتباى

صناعة النسيج كانت زاهرة فى فارس ومصر وسورية قبل الفتوح العربية، ولكن تعصيد الخلفاء والأمراء، وتولى الحكومة إدارة المصانع، وعادة الخلع التى كان يمنحها الملوك وأولو الأمر، كل هذا جعل الصناعة تخطو فى سبيل الكمال خطوات واسعة، وكثر الاقبال على المنسوجات الاسلامية ونهفت على شرائها التجار فعمت شهرتها أوروبا فى المصور الوسطى، وأصبحت أكثر أنواع المنسوجات فى ذلك العهد تحمل أسماء شرقية أو تنسب إلى مدن إسلامية. ولما رأى التجار ذلك هب كثير منهم لإنشاء المصانع فى أنحاء أوروبا المختلفة لمنافسة مصانع الشرق الأدنى والأندلس، وكان العرب قد أقاموا فى صقلية مصانع شهيرة للنسيج ظلت عامرة بمدة أن تقوض سلطان المسلمين فى الجزيرة، فتعلم الايطاليون فى هذه المصانع أسرار النسيج الاسلامى ودقائقه ونقلوه إلى بلدان إيطاليا المختلفة، وحفلت المنسوجات الحربية الايطالية فى القرن الرابع عشر بالزخارف الشرقية حتى الكتابات العربية منها

وبدأ النساجون الأتراك والايطاليون منذ القرن السادس عشر يتنافس كل منهما الآخر ويقلده، حتى لقد يصعب أحياناً التفرقة بين مصنوعيهم؛ وظهرت فى الأسواق بعد ذلك أحزمة من القماش من صناعة أوروبا على الطراز الشرقى وأطلق عليها اسم الأحزمة البولونية نسبة إلى بولندا حيث كثرت صناعتها



أحزمة من النسيج من صناعة بولندا على الطراز الشرقى وكان السجاد أيضاً مما أخذه الأوروبيون عن الشرق منذ القرن الرابع عشر، فتعلم الصناع الغربيون صناعته من المسلمين واحتفظوا مدة طويلة بالأساليب العربية فى زخارفه

وكذلك قلد البنادقة صناعة التجليد الإسلامية فى القرنين الخامس عشر والسادس عشر، ونقلوا بعض أساليبها، ونقلها عنهم غيرهم من صنّاع الغرب، فلا عجب إن وجدنا حتى الآن فى صناعات التجليد الأوروبية المختلفة كثيراً من تفاصيل الصناعة الإسلامية وزخارفها. ومعلوم أيضاً أن بعض المجلدين المسلمين نزحوا إلى البندقية وعلموا البنادقة اختراعات المسلمين فى هذا الميدان. ولا يزال «اللسان» المعروف فى صناعة التجليد العربية موجوداً فى تجليد بعض الكتب الأوربية، ولا سيما كتب المحاسين وأصحاب المصارف. ومما اشتهر به المسلمون فى الأندلس وصقلية صناعة الصناديق من العاج، وفى المتاحف أمثلة عديدة منها، وبينها وبين أمثالها من صناعة أوروبا فى القرون الوسطى قرابة تنبؤ عن تأثير الصناعة الإسلامية

يقى أن نتحدث قليلاً عن المنسوجات فى البلاد الإسلامية وعن أثرها الكبير فى صناعات النسيج الأوربية ولنا نجهل أن